لقد أحضرت المركبة !

للكاتب الفرنسي تيودور دي بانفيل

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

كان « جانوتي » موسيقياً فقيراً مغموراً. وكانت مؤلفاته وألحانه لا تجد سوقها الرائجة إلا في الملاعب الشعبية والمسارح الوضيعة، ولكنه كان مع ذلك ينعم بعيشة راضية وحياة هانئة مع زوج محبة مخلصة تبث فيه الأمل وتبعث فيه الطموح وتصور له المستقبل نيراً خلاباً، فضلا عن تدبيرها للبيت وحسن قيامها على شؤونه حتى جعلته على فقره غنياً من الموسرين، وعلى خموله وثاباً من الطامحين . . وكان ينظر إلى زوجه نظره إلى النعمة الواحدة التي وهبتها له الأقضية، وأتاحتها له الأقدار

وكانت « كوليت » — وهذا اسمها — شابة جميلة ريانة فتانة تحب زوجها وتثق به وتعتقد في نبوغه وعبقريته، لذلك وهبته قلبها وروحها. والمرأة إذا منحت قلبها رجلا أنزلته من نفسها منزلة الروح، وأحلته من روحها محل النفس فأخذت تهيئ له أسباب الراحة والرفاهية فتجهز له من الطعام أحب الألوان إليه، وتتوفر على ترتيب الأثاث وتنسيقه في محال وأوضاع تدل على حسن الذوق وسلامته، حتى إذا ما انتهت من شؤون البيت جلست إلى « البيانو » وأمرّت أناملها البضة الناعمة على أسنانه العاجية عازفة ألحانه مردّدة أناشيده، وتبدئ فيها وتعيد وهي بغنه ونبوغه جد سعيدة معجبة، وكانت تمضي إلى السوق كل صباح لتبتاع ضروريات البيت ولوازم الطعام وتساوم الباعة وتماكس التجار حتى تنزل بهم إلى أبخس الأثمان

ثم حدث فجأة ما غير هذه الحياة السعيدة الهانئة وقلبها جحيما لا يطاق وإليك كيف كان ذلك :

نجحت « تاتا » نجاحاً كبيراً في إلقاء مقطوعة جانوتي الأخيرة. وذهبت يوماً إلى منزله لتبدي بعض ملاحظات فنية على الأنشودة الجديدة قبل أن تغنيها، وجانوتي موسيقي بارع له دراية تامة وإلمام واسع بما تقتضيه هذه الأغاني من فن في التلحين والنغم . . وفتحت لها كوليت الباب وقد انفلتت لتوّها من غسل الآنية وتنظيف الصحون ولما تزل النشفة في يدها فقالت « تاتا » عند رؤيتها

— أعلني للسيد قدومي

ثم تركت من يدها ذيل فستانها المهفهاف الطويل فأعلنت كوليت مقدمها « للسيد » ثم عادت أدراجها إلى المطبخ

وبينما كانت « تاتا » تعرض على جانوتي جمالها وتنفث فيه سحرها وتسدد إلى قلبه سهام لحظها المتكسر الفاتر إذ تفتحت مسارب عيون السماء عن مطر كالسيل الجارف أعاد إلى الأذهان مطر الشهر الماضي الذي كان له أكبر الأثر في إتلاف القبعات وتفتيح الورود والأزهار . فقالت « تاتا » وقد رأت المطر الهتون والسحاب الثقال :

— يا لسوء الحظ ! لقد اكفهر الجو بغتة، أرجو — إذا سمحت — أن تأمر خادمك فتبحث لي عن مركبة .

الآن كان يجب على جانوتي أن يبدو شجاعاً فيقول مثلا « أوه ! أرجو المعذرة ! ليس عندي خدم . إنها زوجي » ولكنه كان جباناً إذ أجاب :

— أجل ... أجل بكل سرور

ثم ذهب وهو يعبث بإبهاميه إلى غرفة المائدة - التي جعل منها أيضاً صالة لموسيقاه - حيث كانت كوليت منهمكة فى غسل الخضر وتجهيز الطعام كأحسن ما تكون زوجة وأروع ما تكون ربة بيت . قال الرجل

— إن الآنسة « تاتا » تخشى على فستانها وحذائها الساتانيين[1] من التلف فى هذا المطر الغزير ولذا أرجو أن تذهبى ...

فأمعت كوليت عبارته وهى تسدد اليه نظرة هائلة ود على أثرها لو تنشق الأرض وتبتلعه

— فأحضر لها مركبة ... حسن! طب نفساً فسأبحث لها عما تريد

وخلعت كوليت بعد لحظات حذاءها البلل وأخذت تنظر إلى النقد النحاسى الذى نفحها به « تاتا » نظير البحث عن مركبة

ومنذ تلك اللحظة تبدل الحال غير الحال ، إذ أن كوليت التى كانت تقوم بكل أعباء البيت وخدمته قانعة راضية ، مخلصة وفية ، أضحت لا تغادر فراشها قبل الحادية عشرة كل صباح إذ تقول وهي تتمطى وتتثاءب « أوه ! ألم يطلع الصبح بعد ؟ ! » وأصبح البيت المنظم المنسق النظيف أشبه الأشياء بمدينة ايطالية وقعت غنيمة باردة فى أيدى القوط . فنسجت العناكب خيوطها القذرة على الحوائط والسجون ، وعششت الحشرات الطفيلية فى الساعة الكبيرة . وأهملت الملابس والجوارب . فاذا انقطع زر فلا يعاد إلى مكانه ، وإذا تمزق جورب فلا يرتق بل يترك وشأنه

وتبدلت مقطوعات « واجنر » بمؤلفات زوجها وأغانيه

وراحت يداها المضطربتان تجريان على البيانو فتأتى بأنشز النغم ، وترفع عقيرتها بالغناء فتخرج أنكر الأصوات فلما فاض بجانوتى وعيل صبره صرخ فيها قائلا

— إن هذه الموسيقى تجلب الصداع ...

فأجابته كوليت فوراً :

لقد أحضرت المركبة !. وكانت هذه العبارة هى الرد على كل ما يوجهه اليها من حديث

— كوليت! إن الجماء بارد ! — لقد أحضرت المركبة — لقد تقطعت أزرار قميصى — لقد أحضرت المركبة — أراك لا تقبلينى الآن . لقد انطوى حبك لى وزال

— كلا ياعزيزى ، ولكنى أحضرت المركبة

محمد عبد الفتاح محمد

(١) الساتانيان . نسبة إلى قماش « الساتان »